

## الذبابَة وصراع التأويلات

شريف الدين بن دويه<sup>1</sup>

### توطئة :

يضع البناء التركيبي لعنوان البحث العقل المشدود بحبل الحقيقة في موقع المؤول، و الباحث عن المعاني المرغوب تحميلها داخل المقال، والإحالات الأولية التي يفترضها المتلقي في تأويل العنوان هو البعد العجائبي الذي يشدّ به انتباه الباحث، ولكن التعرّف على المورد الذي أقتبس منه العنوان يضع الشغوف بفن التأويل في قلب التأويل.

" كانت ذبابة على عود قشّ فوق بول حمار، وقد رفعت رأسها كربان السفينة.. وقالت إني اسميها بحرا وسفينة وهذا ما استغرق فكري مدة من الزمان... لقد كان هذا البول يبدو بلا حدود بالنسبة لها، ومن أين لها ذلك النظر الذي يراه على حقيقته؟.. فصاحب التأويل الباطل مثل الذبابة وهمه بول حمار، وتصوره قشّة.. فمن يدرك هذه العبرة لا يكون ذبابة، كما ان هذه الصورة لا تليق بروحه.<sup>2</sup>"

النفحات المعرفية التي تقدّمها هذه الشذرة الشعرية لجلال الدين الرومي، كثيرة ومتعدّدة بالقدر الذي تحملها الرابطة القدسية بين عالم الحقيقة، والأنا المتعالي في سيره الارتقائي، فالتأويل جزء من الجلبة الانسانية، فالكُلّ يملك هذا الحق في الفهم، ولكن السبل الى هذه المعرفة تكون بقدر أنفاس الخلائق، فالتفاوت بين بني البشر في مدارك الفهم يتبع مؤشرات العلاقة الجدلية بين الطبيعة والطبيعة

<sup>1</sup> الجزائر - جامعة سعيدة - كلية العلوم الاجتماعية .شعبة الفلسفة.

<sup>2</sup> جلال الدين الرومي، مثنوي، المكتبة العصرية، بيروت الطبعة الاولى 1966 ص 176:

الاجتماعية الثقافية، فالناس ثلاث: "عالم رباني، ومتعلم على سبيل النجاة، وهمج رعاع اتباع كل ناعق."

فالشرائح الاجتماعية لا تتحدد تبعاً للرأسمال النقدي أو العيني، بل تتحدد وفقاً لمستوى قابلية الارتقاء، والتأويل الصادق تمييزاً عن تأويل الذبابة الكاذب هو المائز لمستوى التعالي والتسامي، فالتأويل فضاء رحب يصعب تحديده أو تسيجه، وسنجد في هذا البحث البسيط تبيان أسس التأويل الهيرومينوطيقي، وجذور هذا الفن الشرقية التي نجد الكثير منه في اللامعقول من التراث الانساني، وسنحاول الدخول في عالم الشذرة الشعرية لمولانا جلال الدين الرومي، لنرى مدى موافقتها أو قابليتها في ان تصبح قاعدة معيارية للفصل بين التأويل الكاذب، والتأويل الصادق.

### منطقة التأويل:

التأويل علم الفهم أو الفن الذي يضع الآليات الضرورية لحفظ الفهم من الانحراف والاندرج تحت صنف تأويل الذبابة، فنسبية الفهم لازمة منطقية، إذ أن ظاهرة المفهمة مشروطة بأطر ثقافية، وذاتية، وعليه فالتقاطع بين التأويل الصحيح، والمنطق لازمة ضرورية، وهذا ما أشار اليه وليم دلتاي عندما أراد تأسيس أورغانون لفن التأويل، من خلال ورضع قواعد صورية موضوعية متعالية تتقاطع فيها جميع العقول البشرية الممارسة لفن التأويل، ولكن الحقيقة التأويلية تستعصي عن الموضوعية المنطقية، فهي: "حقيقة إمكانية، لا تخضع للمبادئ المنطقية، أي أنه لا يمكن أن نميز بين تأويل صحيح، وتأويل غير صحيح.. فالكاتب هو أفضل مؤول لمؤلفه.."<sup>3</sup>

3 عمارة الناصر، اللغة والتأويل، منشورات الاختلاف، الجزائر الطبعة الاولى 2007 ص:32

ويمكننا تقديم مقترحات لبعض العوائق التي نراها عائقا أمام بلوغ تأويل صحيح، وهي اللغة، والمقدس، والراسب الثقافي، والتي يمكن التعبير عنها في كلمة دقيقة هي الثقافة بالدلالة الأمريكية التي تنضوي تحتها جميع المؤسسات الجماعية، فهي: كل مركب يشمل كل المؤسسات، والتي يكتسبها الفرد بصفته عضوا في المجتمع.. كما يعبر عن ذلك تايلور.

#### اللغة:

من المسلمات الرئيسة التي لا يختلف فيها عاقلين، أن اللغة مؤسسة اجتماعية، والتسليم به كبدأ يفترض نسبة الفهم، والتأويل، إذ تضعنا اللغة بلحاظها وخصوصياتها في وضعيات إشكالية أكثر من التي نضعها فيها، فهي التي تدفعنا إلى مراجعة استعمالنا لها، على قاعدة الحصوبة والثراء الذي نسم به، كما أن الكلمات أو الألفاظ التي هي المخاض الرئيس للغة، فهي البنيات الأولية التي تقتضي منا مراجعتها، والتي تكون في ذات الوقت أداة للمراجعة، وطبيعة المنهج البنيوي والتفكيكي يعكس الوظيفة الأخيرة للغة، والتسليم بالوظيفة التواصلية للألفاظ يستبطن توصيفا فاصلا بين اللغة والفكر، أي أن القول بأن اللغة وسيلة يفترض وجود معاني وأفكار مالكة لخاصية انطولوجية تحتاج إلى أداة مستقلة بالوجود وموضوعية عن الذات هي الألفاظ، فالبحث في طبيعة العلاقة بين الفكر واللغة، هو محاولة من الفكر في تفجير التماهي القائم بين الجوهر وصورته، التفجير الذي يحول الإجابة إلى شظايا، وظلال للحقيقة، أي إلى مجموعة إجابات.

الاستقلالية الانطولوجية لشخصية المفهوم، تظهر من خلال التفرد الذي تملكه اللغة في مقابل الفكر، إمكانية التغير الذي يقصي كل تصور تداخلي بين المفهومين، ولكن التصور التمييزي لهما ليس إلا خطوة سكولائية. أما الحقيقة فتبقى في الإقرار بالعجز عن وجود تخارج بينهما، وهي النسق الرمزي الذي يملك الإنسان، قبل أن يكون هو مالكة، وهي مجموع من الأصوات المفيدة، وهي ما

يعبر به كل قوم عن أغراضهم<sup>4</sup>، كما تطلق اللغة على اللسان على قاعدة ضرورته في بناء النطق، وإنجازه، فهي: " لا تقتصر على الرموز الصوتية المنطوقة فحسب، بل تتعدى ذلك لتشمل جميع الوسائل الأخرى كالإشارات والإيماءات والحركات التعبيرية والجسدية..فهي جميع الرموز المنطوقة وغير المنطوقة التي يستخدمها افراد مجتمع ما كأداة من أدوات التخاطب للتعبير عن المشاعر والأفكار.."<sup>5</sup>.

كما يعتبرها العالم ايميل بينفينيست أهم مخاض للملكة الترميزية عند الإنسان، يقول: إن ملكة الترميز عند الإنسان تبلغ أقصى تحققها في اللغة، التي هي التعبير الرمزي بامتياز. وكل أنظمة التواصل الأخرى، الخطية منها والحركية والبصرية تتفرع عنها وتفترضها مسبقا. لكن اللغة نظام رمزي خاص. منتظم على صعيدين. فهي من جهة واقعة فيزيائية، إذ أنها تستخدم الجهاز الصوتي لتظهر، والجهاز السمعي لتدرك زهي من جهة بنية لا مادية وإيصال لمدلولات<sup>6</sup>.

اللغة قبل أن تكون جهازا رمزيا موضوعيا ومستقلا على الأفراد الناطقين به، هي قابلة لإنشاء تلك المنظومة الرمزية؛ فالقدرة على إنشاء نسق رمزي هو ملكة إنسانية بامتياز، فهي متعددة الأبعاد، فهي ذاتية فردية واجتماعية في آن واحد، وكونية في سياق آخر، يقول الاستاذ حنفي بن عيسى: "الكلام واللغة إن هما في الواقع إلا جانبان متناظران لظاهرة واحدة. أما الأول منهما فهو الجانب الفردي من السلوك اللفظي. وأما الثاني فهو الجانب الاجتماعي من ذلك السلوك. أما اللسان، فهو النموذج الاجتماعي الذي استقرت عليه اللغة، أو قل إنه صورة من السلوك السوي بالنسبة إلى الأغلبية العظمى من أبناء الأمة الواحدة.."<sup>7</sup>

فاجتماعية اللغة وراء تشظي الحقيقة التأويلية، فكيف نؤسس لفهم موحد لنص كتب بلغة تنتمي الى ثقافة، ومحيط مختلف عنا، وإشارتنا لبعض جزئيات

<sup>4</sup> جميل صليبا، المعجم الفلسفي، الجزء الثاني، دار الكتاب اللبناني، بيروت. 1982. ص 286 (د.ط)

<sup>5</sup> رافع الزغول وعبد الرحيم الزغول، علم النفس المعرفي. دار الشروق، الأردن ص: 222 (د.ط.ت)

<sup>6</sup> E. Benveniste. problèmes de linguistique générale. ED. Gallimard 1966 pp 28

<sup>7</sup> حنفي بن عيسى، علم النفس اللغوي، ص: 65

اللغة كان بقصد بيان الاختلافات الواقعة في تلقي الدلالات من الغير الذي هو صاحب النص، فاختلافنا قائم، وواقعة نلصها بين أبناء اللغة الواحدة، فكيف ذلك عند قراءة نص مترجم، وإشكالية الترجمة تبرر لنا التعارضات الموجودة بين الفهم التأويلي، لدرجة اعتبرها البعض خيانة للمعنى المقصود من قبل المؤلف، وفكرة موت المؤلف تؤسس أيضا لاندثار المعنى الذي يحمله النص.

وارتباط النص بالمؤلف مسألة بديهية، حيث لا يمكن فصل عن النص عن مؤلفه، فهوية المعنى من هوية مؤلفه، إذ تتقاطع مساءلة النص تبعاً للرجعية المعيارية مع الأشكالية الإنسانية لقضية الهوية في كثير من المحاظ أو الحثيات، والتي تنصدرها زئبقية المخاض البحثي؛ لأن التباين بين المدارس والاتجاهات أصبح موضوعاً وبديهية في فكر المتلقي، وإذا كانت مؤشرات الهوية ومقاييسها في مد، وجزر بين علماء السياسة والاجتماع، فكذلك الشأن بالنسبة إلى أصالة النص كانت ولا زالت بين مدارس النقد الأدبي تطرح آفاقاً جديدة من الاعتبار والمعايير في فهم النص.

ويمكن الاستئناس بالتعبير الكانطي Kant<sup>8</sup> في مسألة الفلسفة في قوله: "يعتقد المقبل على دراسة الفلسفة أنه سيجد كتباً لقراءتها ويحفظها، ولكن الفلسفة هي بحث وليست فلسفة..". وكذلك الحال بالنسبة إلى الدراسات النقدية في الأدب، لا تقدم للمقبل على الدراسة في هذا الحقل علماً قائماً بقوانينه، ومعاييره، يخضع له النص للبحث أو التقييم، بل أفق النقد، وأرضية التقييم تتلون بكل توجه نحو النص.

وعلى مدار الزمن صنف الإنسان البعض من النصوص في قائمة النموذج، فأصبح الإنتاج النصي ملزماً بمحاكاة ذلك المقياس، لمنحه أهلية الترتيب ضمن النصوص العالمية، كما أن معايير العالمية أو الإنسانية التي تقاس بها الإبداعات

<sup>8</sup> إيمانويل كانط: فيلسوف ألماني، من مؤلفاته، نقد العقل الخالص، ونقد العقل العملي...

الأدبية، والفنية تحتاج هي أيضا إلى مراجعة أكاديمية متعالية على كل ارتباط مؤدج بنيات ثقافية، أو جغرافية.

وقد كانت هذه الذاتية بمصاديقها الفردية أو الجماعية أسس التراجع والتأخر الذي حايث النمو والتطور في داخل الحقل الأدبي، فمحاكاة البحث في النص لدراسة الإنسان، تضع البحث والباحث في قفص الوعي المزدوج؛ إذ يتخفى كجوهر داخل النص، ويتمهى معه، لدرجة يصبح النص بديلا عن الكاتب، أي إعلانا عن نهاية أو موت الكاتب، فالنص كمؤسسة، أو كمخاض للكاتب يضع الأصل النصي، أو الفكرة الجوهرية التي كانت تشكل الماهية الأولية للنص المبدع أمام محك المؤسسة اللغوية، تلك المؤسسة المقننة، من خلال نظامها الصرفي، والنحوي، والسيمانطيقي *Sémantique* بخاصة حين يجد المؤلف نفسه ملزما باقتفاء، وتكييف المعاني المركزية للجنين الإبداعي مع عالم غريب عن طبيعته، والذي قد يكون مولدا له في صيغة السلب؛ أي في وضعية الحرمان الذي يلعب يؤدي دور المحرك للعمل الفني؛ الحاجة أم الاختراع، فلهذا المؤلف هي المدخل للأهلية الإنسانية وللإبداع الفني؛ لأن قوة وقسرية المنظومة الاجتماعية كلغة أو كثافة تضع العموم من المنتج الفني أمام ضرورة المحاكاة والإتياع.

أما العائق الرئيس في الدراسات النقدية والأدبية، فهو الوعي الذي يكمن وراء كل حكم أو توصيف للنص؛ لأن شرطية المتلقي، وموقفه القيمي من العمل الفني يكون مؤشرا أو معلما من المعالم المؤسسة لعالمية أو إنسانية الأثر الفني، فإقصاء الأذن أو العين من مقاييس الإبداع هو إلغاء للفن ككل، أما التجلي الخفي للوعي، فيظهر أيضا عند الباحث في النص، إذ يقف عائقا أمام الموضوعية في الحكم، وفي دقة النتائج.

وما يؤكد ذلك نزعة التقزيم الأوروبية للنص العربي أو الإسلامي، أو النص المفارق لروح الغرب، والتي اكتسحت الفكر العربي في مرجعياته التقييمية للنص، فكانت النتيجة النزوع نحو التقزيم داخل النص العربي، والذي يعكس مظهر

العنصرية الفكرية التي أسست لها الحداثة الغربية، والتي لم تترعرع إلا عند البعض من أنصاف الأدباء، وكانت التوجّهات المذهبية المرجعية المؤدّجة للفكر الذي يتحرك في فضاء إسلامي، فكان الخلاف والاختلاف في مسألة العلاقة القائمة بين الهوية والنص..

وإذا كانت الهوية تعبيراً، وبوتقة لذاتية الأنا، فهل يمكن اعتبار النص حاو لذاتية مفردة متعالية على ذات المبدع للنص؟ .. هل تكون البنية الانطولوجية مرجعاً رئيساً لهوية الهوية ولهوية النص؟ أم هي تعالي عن التعدد، وإقصاء له؟ وإذا كانت مؤشرات الهوية تكمن في الاستقلالية، فكيف نبرر مسألة الارتباط السببي، و معلولية الكيان الذاتي لعلته المصدرية؟ كيف تتحدّد هوية النص؟ هل تكون هوية النص هل تتحدّد من خلال التقيد بالانتماء أم بالتعالي عليه؟ وإذا كانت مرجعية الهوية قائمة على الشخصية القاعدية للفرد وللغة، فكيف نبرر مشروعية العالمية للنص؟ وإذا كان التماهي بين النص وبين ولغته القاعدية، من مؤشّرات الإبداع فكيف يصبح نصاً إبداعياً!!

تستبطن هذه الأسئلة إجابات ممكنة، ومفتوحة تضفي نسبية صارمة على آليات التأويل في التعاطي مع النص، فالإجماع على ضوابط، وثوابت في فن التأويل، يحاكي البحث عن قبعة سوداء داخل غرفة مظلمة.

وتتميّط هويّة نصية لا تخرج عن سياقات ثلاث: "الأول هويّة اللغة التي يهتم بها علماء اللغة، والثانية هوية النص الإبداعي الموروث التي حققتها مرحلة تاريخية. والثالث هوية النص الممكن.<sup>9</sup> فالهوية المطلوبة، والمتمنّعة داخل النص، مجال ممكن، واحتمالي، واقتراضي ليس إلا، ويبقى المؤول شريكاً للذبابة في قراءته النص، وفهمه له.

المقدّس:

<sup>9</sup> محمد الأسعد الهوية كنص ممكن. مجلة الفكر العربي المعاصر العدد: 77. 1981 / 1982. ص: 98-99

مشكلة الإنسان مع المقدّس، والطابوهات، ترافقه في مساره الوجودي، وأعتقد أن هذا التلازم لا يمكن فصم عراه إلا بنهاية الإنسان التقليدي، ونقصد به الفرد كموروث تاريخي، وثقافي، وليس الإنسان الحقيقي، وإذا استعرنا اللغة الأرسطية، في تمييزها بين مبدأ القوة، والفعل لتبين التصور أكثر، فالإنسان بالقوة لم يتحقق بعد إلا من خلال نماذج بشرية محدّدة [الأنبياء عليهم السلام] وتبقى الخصائص الإنسانية مطلباً إنسانياً، أما الإنسان الواقع فليس إلا ككّلة تتقاسمها مجموعة من القوى الخفية، فهو مقسم وفقاً لجغرافيا عضوية، وثقافية، والمجتمع العربي في تفكّكه، وتشظّيه نموذجاً لهذه الفوضى التي يترّكب منها البنية الفردية للإنسان. والمقدّس كظاهرة ثقافية تعمل بشكل ظاهر تارة، وخفيّ تارة أخرى على توجيه الفهم، وفلسفة السلطة عند ميشال فوكو Foucault كافية لتوضيح الأمر، حيث يعمل على توجيه الفهم نحو إمكانات، تضع المعنى في أرجوحة، فلا إستقرار للدلالة بين المتلقين.

وقد أخذ المقدّس تجليات متعدّدة، أهمها تقديس المعلومة، ورفعها الى مقام الحقيقة، والتي هي في الأصل بنت مفكر الذي هو إنسان، فرد، والذي يصفه ابن الهيثم في كتابه الشكوك على بطليموس: "بل طالب الحق هو المتهم لظنه فيهم، المتوقّف فيما يفهمه عنهم، المتبع الحجّة و البرهان، لا قولَ القائل الذي هو إنسان، المخصوص في جبلّته بضروب الخلل والنقصان"<sup>10</sup>

فإضفاء الحق على الفكرة على قاعدة قداسة وكارزمية الشخص، يجانب الصواب، وينتج عنه انحرافات فكرية، وانحرافات نحو المجهول، فالحق هو مقياس الشخص، وليس العكس، إذ لا يعرف الحقت بالرجال، بل يعرف الرجال بالحق، فموضوعية الحق تفترض مناقشة وتحيصاً جدياً للمعارف، ولما نعتبره حقائق، فالخطأ سمة إنسانية بامتياز، فالفرد معرض للزلل في كثير من المواقع، والخطأ مرده الى اعتبار منطقي، او اعتبار نفسي، فدلالة الاعتبار المنطقي تعود الى غموض

<sup>10</sup> الحسن ابن الهيثم، الشكوك على بطليموس، تحقيق عبد الحميد صبره، القاهرة ص:4



الرؤيا في تصور الموضوع، والى خلل في البناء المنطقي للاستدلال، ويمكن الضعف في المعارف، والحقائق يوجد في البنية الاستدلالية التي تقوم عليها، وليس في الحقيقة الموضوعية، والشق النفسي وهو الأخطر، حيث تعمل على الذات بطبيعته الحيوية الى العمل على الحفاظ على كينونتها، ووجودها المستقل برفض الحقيقة التي ينتجها الآخر، وهي التي نصلح عليها عموما بالتعصب، أو الأفضل الاصطلاح عليها بالتعنت، والتشبث بالرأي، لأن التعصب فكرة تحتاج الى مناقشة، لأن الارتباط بالعصبة، او العصب كمكون ثقافي للهوية يصبح ضروريا في الاستمرارية، فلو لا التعصب للقبيلة، أو للأمة، أو للدين لاندثرت الأمم، والديانات، فالبعد الحماسي، والانفعالي ضروري في المحافظة على توازن الأمم، وبقاءها، ولذا عمل البعض من المفكرين الغرب على تشويه فكرة العصبية، وإعطائها بعدا ذاتيا، يقصي الحقبنة الموضوعية، ولكن الذاتية ركن رئيس في الوجود، فلا حياة للأفراد بدون ذوات، فهل هناك هوية لذوات دون هوية؟!!

يظهر المكون النفسي أيضا في الرواسب الثقافية للفرد، أو للقارئ، وهي تعمل على توجيه الفكر، وهو الوعي الخطير الذي يقف عائقاً أمام الفهم، والتأويل الصحيح للمعاني، ونجد في تراثنا الإسلامي نماذج كثيرة من هذه التجاوزات، حيث اعتاد العلماء على اعتبار الرجال فوق النص، فالنص لا يفهم إلا في ما قدمه الرجل، أو الصحابي أو الإمام في الفكر الإسلامي، والحاخام في الفكر اليهودي، والقس في المسيحية، فالحقيقة ملك الفرد، ولا تملك استقلال انطولوجيا لها.

الحقيقة مطلب، ووجود متعال عن طالبه، وإدراك المعنى يتم من خلال إدراك المعاني الكلية للدلالات في اللغة، فهما تعددت اللغات فهناك وحدة في المعنى، وهي ما تعرف باللغة التوحيدية، أو الموحدية، وإذا رجعنا الى اللغة الانفعالية لوجدنا المرجعية التوحيدية في اللغة، حيث الإختلاف يصبح نادرا، ونجد في المنظومة الأخلاقية وحدة وإجماعا قيميا عند بني البشر، يقل فولتير: "لا توجد الا أخلاق واحدة مثلها لا توجد الا هندسة واحدة"..ولو عدنا الى تراثنا الإسلامي

لوجدنا في أسماء الله الحسنى التي تعبر عن الصفات الالهية، والتي يسعى المؤمن إلى الاقتراب من الله من خلالها، فهي قيم، وصفات أخلاقية مطلقة في استمرارها، وفي وجودها، وفي إمكانية الانسان لتمثلها، والعمل بها، فهي كحق، وجمال، وحنان.. صفات متعالية تتوحد البشرية في طلبها.. فحياتنا مسار بين وهمين، او توهمين: الذكرى، والأمل..

فنحن في التأويل والذبابة سواء إلا من أتى الله بقلب سليم، فالقلب بصفاءه طريق الإدراك الصحيح.